

الهارب

للشاعر الروسي يوري

ليرمنتوف*

ترجمة د. التجاني الجزولي

مدير المعهد الإسلامي

للتريجة - الخرطوم

القوقاز على حريتهم رغم البون
الشاسع بينهم وبين الدولة القيصرية في
القوة العسكرية، وكتب كلاهما عن
حب القوقازيين للحرية وأصبح القوقاز
كما أصبحت مصادر الإسلام الأولى
مصدر إلهام لهما. وقد منعت الرقابة
القيصرية نشر الأبيات التي يقول فيها
ليرمنتوف عن "هارون" بطل قصيدته
هذه:

" استشهد من أجل الشرف والحرية

أبوه وأخواه،

تعفرت أبدانهم تحت أقدام الأعداء

فسالت دماؤهم تنادي بالقصاص."

لقد بذل ليرمنتوف جهداً كبيراً لتأتي
قصيدته وكأن كاتبها مسلم، وأراد
لأشخاص قصته الشعرية أن تكون
واقعية معبرة عن المفاهيم الإسلامية،
لكنه ظل أسير الرؤية المسيحية فأبطل
التحيز للفئة وأجاز الانتحار، ولم
ينسب الأرض لله مالك الملك جل
جلاله بل نسبها للنبي عليه الصلاة
والسلام، كما جعل الحساب يوم

مقدمة

لا يظن أحد أن ليرمنتوف كان قريباً
من الإسلام وهو يكتب هذه الكلمات.
كما لا يجب أن نفترض أنه كان معادياً
له، بل هو كاتب روسي يتوخى
الموضوعية وينشد الحرية لشعبه ويعرف
معناها لغيره من الشعوب. جاء يوري
ليرمنتوف خلفاً لشاعر روسيا الأول
الاسكندر بوشكين وتأثر هو، كما تأثر
أستاذه، بالقرآن الكريم، والحديث
الشريف، والسيرة المطهرة. وأجر هو
كما أجر بوشكين على الحرب ضد
أهل القوقاز وتبها إلى حرص شعوب

القيامة له، لا لله، تمشياً مع المفهوم
المسيحي بأن الرسول قد يشارك الرب
في أمره، حتى أن نصيب "الرب الأب" -
عندهم صار أوفر من نصيب "الرب
الأب".

فعندما يقول ليرمنتوف عن الشهداء:
"قبل النبي موتهم" فهو لا يستهين بللته
ولا يحظر على باله أن في الأمر شرك.
إن همم الأول معرفة دوافع المناضلين من
أجل الحرية.

1
فر هارون من ساحة القتال،
وكان في عدوه كالغزال،
بل فاق الأرنب الفار من العقاب.
كان خائفاً، فعلى أرض القتال
سالت دماء أهله الشركس.
استشهد من أجل الشرف والحرية
أبوه وأخواه،
تعفرت أبدانهم تحت أقدام الأعداء
فسالت دماؤهم تنادي بالقصاص.
ولكن نسي هارون العهد ونسي العار
ها هو ذا يعدو بعد أن أضاع

سيفه وبنديته على أرض القتال.
غربت الشمس،
وقد تدد الضباب وغطى الأودية المظلمة
بغشاوة شهباء.
وهبت من الشرق ريحٌ باردة،
بزغ الهلال مذهب القرنين يسري
فوق أرض النبي.
مسح هارون عن جبينه العرق والدم،
وقد أرهقه التعب وأفككه العطش.
لكن هاهو ذا الحمي الذي تزعر فيه
يتراءى له بين الصخور تحت ضوء
القمر
فاقترب في صمت يحفه الهدوء
لا يراه إنسان.
عاد لوطنه وحيداً سليماً،
من معركةٍ دامية لم يسلم منها سواه.

2
أسرع هارون نحو بيت جيلي -
بيت صديقه
وكان ينبعث منه النور:
إذاً قرب الدار فيها.
استجمع هارون كل قواه النفسية

وتخطى عتبة الدار-
دار صديقه سليم .
لم يعرف سليم زائره
من الوهلة الأولى:
كان مريضاً طريح الفراش،
وحيداً يموت في صمت
فابتدره هارون قائلاً:
"الحمد لله الذي حفظك بملائكته
النورانية
من شر ما أصابك من أذى
حتى يُظهرَ مجدك"
فسأله سليم وهو يرفع أهدابه بعناء
وقد لمعت عيناه بنور الرجاء:
"ماذا وراءك يا هارون؟"
ثم تحامل على نفسه حتى جلس،
وتقمصته روح المحارب من حديد
وهو على فراش الموت.
فأجابه هارون:
"قاتلنا يومين كاملين،
محصورين بين الجبال
حتى سقط أي. ومن بعده أخوأي،
ثم احتميت بالصخور في الصحراء
وسرت وحيداً كوحشٍ طريد.

دميت قدماى من الشوك والحجارة.
وانخذت طريقاً لا تسلكه
سوى الذئاب والخنازير البرية:
فالعُدو في كل مكان،
وفي كل مكان يموت أهلنا الشر كس،
فأوني أيها الصديق،
وسأحفظ لك الجميل
طول حياتي، وحق النبي."
فأجابه المريض وهو على فراش الموت:
"يا للغار! أغرب عني.
لا مأوى للجبناء،
لا يورك فك."
لم يغضب هارون
فقد تملكه الخجل،
واعتصر قلبه الألم،
وتخطى عتبة الدار من حديد.
ذليلاً طريداً.

3
ها هي ذي دار أخرى يتخطاها،
لكنه يقف هنيهة يذكر فيها
حلم أيام مضت،
فيحس على جبينه البارد

حرارة الهواء كأنها حرارة القبل،
فتضيء روحه وتنتعش،
ويخيل إليه في الظلام
أن عينين تبرقان هشان له
وظن أنه محبوب.
وظن أنه سبب حياة تلك التي تحبه
وأراد أن يدخل عليها دارها
ولكن بلغ سمعه صوت غناء --
أغنية قديمة تغنيها هي،
فشحب لونه وحمد:

"يسري الهلال في الظلام
في هدوء وصمت.
يمشي الرجال للقتال.
يحمل سلاحه الفتى
فتقول له الفتاة:
كن راضياً بالقضاء،
واحفظ الصلاة،
من آمن بالنبي آمن بالخلود
أما الذي يكون
أهله الكرام،
ولا يقاتل العدو،
فليمت في هوان

ولن تغسل السماء جرحه،
وستعاف الذناب عظمه.
يسري الهلال في الظلام،
يمشي الرجال للقتال،
في هدوء وصمت."
فطأطأ هارون رأسه،
وسار مسرعاً خطاه.
وربما سقطت من جفنه
دمعة جرى على صدره.

4

ثم ها هي ذي دار أهله البيضاء
وقد أمالتها الأيام والرياح
تعرض طريقه،
فيغشاه الأمل من جديد،
ويطرق هارون، كعادته، الجدار تحسب
النافذة،
فهناك من تصلي من أجله في حرارة،
ترفع دعاءها إلى السماء،
تلك أمه العجوز
تنتظر ابنها العائد من القتال،
لكنها لا تنتظره وحده!
"افتحي يا امه

للسائح المسكين.
أنا ابنك الصغير هارون
نجوت من رصاص الروس
وحنت إليك.
"وحدك؟! "
"وحدي! "
"أين أبوك وأخوك؟ "
"استشهدوا،
قبل النبي موتم،
وتلقت الملائكة أرواحهم."
"هل أخذت بثأرهم؟ "
"كلا، لم آخذ بالثأر.
ولكني انطلقت كالسهم بين الصخور،
تاركاً الموت بأرض بعيدة،
ليبالك مبي العزاء
وامسح الدموع عن عينيك."
"كفى، كفى، أيها المنافق:
لم يهن عليك أن تموت عزيزاً
من أجل حريتنا.
أغرب عن وجهي إذاً
وعش وحيداً،
فلن أسود ما بقي من عمري بدنس
العار.

أنت عبد ذليل، أنت عبد جبان،
وما أنت لي، بعد اليوم، ابن."
5
تيرأت الأم من ابنها،
الذي بقي تحت النافذة،
في سكون غمر الساحة،
ينن ويستجدي،
مرسلاً اللعنات.
ولم ينقطع عذابه وخزيه
إلا بطعنة قوية من خنجره،
وعندما رأته أمه في الصباح
أشاحت بوجهها عنه في برود.
وحمل جسده بعيداً
ليلقى في العراء.
ثم جاءت كلاب الحي تلعق
الدم السائل من جرحه الغائر،
وجاء الصبية الصغار يلعبون
ويصيحون
لا يلتفتون لجسده البارد المنبوذ.
وظل موته وعاره
يتناقله الناس كلما حكوا

لأطفالهم عن الحرية.
ولما فاضت روحه
ولت جزعاً
عندما كشف لها عن النبي
في عالم الأرواح.
وصار شبحه يتراءى حتى اليوم
في الليالي المظلمة
عند جبال الشرق.
وآونة عند الفجر
يطرق الجدار تحت النافذة
يطلب الدخول،
لكنه ما أن يسمع القرآن يتلى في
الصلاة
حتى يلوذ بالفرار،
يحتمي بعنمة الضباب،
كما فعل من قبل
عندما فر من الموت.

* كتبت في عام 1838م وترجمت قرابته
عام 1983م